أسد فرائسها الأسود

يمدح علي بن منصور الحاجب:

[الكامل]

بِـأَبِـي الـشُّـمُـوسُ ٱلْـجَـانِـحَـاتُ غَـوَارِبَـا
ٱلـلَّابِـسَـاتُ مِـنَ ٱلْـحَـرِيـرِ جَـلَابِـبَـا[١]
أَلـمُـنْـهِـبَـاتُ قُـلُـوبَـنَـا وَعُـقُـولَـنَـا
وَجَـنَـاتِـهِـنَّ الـنَّـاهِـبَـاتِ الـنَّـاهِـبـا[٢]
أَلـنَّـاعِـمَـاتُ الْـقَـاتِـلَاتُ الـمُـحْـيِـيـا
تُ الـمُـبْـدِيَـاتُ مِـنَ الـدَّلَالِ غَـرَائِـبَـا[٣]
حَـاوَلْـنَ تَـفْـدِيَـتِـي وَخِـفْـنَ مُـرَاقِـبـاً
فَـوَضَـعْـنَ أَيْـدِيَـهُـنَّ فَـوْقَ تَـرَائِـبَـا[٤]
وَبَـسَـمْـنَ عَـنْ بَـرَدٍ خَـشِـيـتُ أُذِيـبُـهُ
مِـنْ حَـرِّ أَنْـفَـاسِـي فَـكُـنْـتُ الـذَّائِـبَـا[٥]

---

(١) و (٢) الجانحات: المائلات. الجلابيب: الواحد جلباب: الرداء يلتحف به. يُفدّي الشاعر النسوة اللواتي يرحلْن بعيداً، وقد تسربلن بالجلابيب، لقد سلبن قلوب الرجال واستحوذن على عقولهم فساحت عقولهم بوجوههن النضرة المشرقة الجميلة التي انتهبت الأبطال الذين يُبلون البلاء الحسن في الحروب ويحصلون على أسلاب قتلاهم.

(٣) الناعمات: الرقيقات. القاتلات: اللواتي يصددْن ويهجرْن. المحييات: الودودات بوصلهن. الدلال: الغنج. الغرائب: مختلف فنون الإغراء. يعدّد الشاعر المواصفات التي تتصف بها نوادر النساء المحبّبة للرجال. الرقة واللطف، مع شيء من التمنّع والصدّ لمعرفة رصيدهن من الحبّ، مبديات الغنج والدلال وشتى أنواع فنون الإغراء.

(٤) الترائب، الواحدة تريبة: عظام الصدر. لقد حاولت النسوة لفت نظر الشاعر إليهن دون لفت أنظار من في المكان، ولشدّة إحساسهن بما يقمن به من حرج وخوف وضعن أيديهن على صدورهن.

(٥) البرد: الثلج، ويقصد بذلك ثغورهن. كانت بسمات ساحرة، كشفت عن ثغورهن ذوات الأسنان اللؤلؤية البديعة، ممَّا حمل الشاعر على الخوف على تلك الأفواه من أن تذيبها أنفاسه الحرّى فإذا به يذوب.

يَـا حَـبَّـذَا الـمُـتَـحـمّـلـونَ وَحَـبَّـذَا
وَادٍ لَـثَـمْـتُ بِـهِ الْـغَـزَالَـةَ كَـاعِـبَـا[١]
كَـيْـفَ الـرَّجَـاءُ مِـنَ ٱلْـخُـطُـوبِ تَـخَـلُّـصاً
مِـنْ بَـعْـدِ مَـا أَنْـشَـبْـنَ فِـيَّ مَـخَـالِـبَـا[٢]
أَوْحَـدْنَـنِـي وَوَجَـدْنَ حُـزْنَـاً وَاحِـداً
مُـتَـنَـاهِـيـاً فَـجَـعَـلْـنَـهُ لِـي صَـاحِـبَـا[٣]
وَنَـصَـبْـنَـنِـي غَـرَض الـرُّمَـاةِ تُـصِـيـبُـنِـي
مِـحَـنٌ أَحَـدُّ مِـنَ الـسُّـيُـوفِ مَـضَـارِبَـا[٤]
أَظْـمَـتْـنِـيَ الـدُّنْـيَـا فَـلَـمَّـا جِـئْـتُـهَـا
مُـسْـتَـسْـقِـيـاً مَـطَـرَتْ عَـلَـيَّ مَـصَـائِـبَـا[٥]
وَحُـبِـيـتُ مِـنْ خُـوصِ الـرِّكَـابِ بِـأَسْـوَدٍ
مِـنْ دَارِشٍ فَـغَـدَوْتُ أَمْـشِـي رَاكِـبَـا[٦]

(١) لثمت: قبّلت. المتحمّلون: الراحلون. الكاعب: الفتاة التي بدأ ثديها يتكعّب. يحلو للشاعر الركب وهم يرتحلون، ولقد قبّل فتاة في مقتبل العمر كأنها الغزال في رقّته وأناقته وجمال عينيه وصوته الساحر.

(٢) الخطوب، الواحد خطب: المصائب. يسأل الشاعر وقد تملكه خوف من أن يقع أسير الإغراء؛ فالخطب جلل، ذلك أنهنّ غرسن مخالب الوقيعة في مشاعره، وهو يودّ الفرار من هذا الشرك الجميل الخدّاع.

(٣) و (٤) إنها وحشة الفراق، فالشاعر يُعاني من هجر، لقد رحل الأحبّة، وتركنه يُعاني حزناً أليماً وفراغاً ممضًّا. ولقد جعلت المصائب منه هدفاً يُرمى، فيصيب الرامي بسهولة حيث يريد من جسده المضنى من هجر من أحبّ.

(٥) أظمأتني، حذفت منها الهمزة تخفيفاً: جعلتني عطشان، للشاعر عطش جفف مسارب الأمل في أفق حياته، فراح يسعى في سبيل إرواء نفسه، فإذا بالمصائب تتوالى عليه من كلّ جانب.

(٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٢. حبيت: أعطيت الخوص، الواحدة خوصاء: هي الناقة الغائرة العينين من شدّة الإعياء والجهد، الدارش: الجلد الأسود. يصوّر الشاعر سوء حاله، فقد لم يوفق للحصول على ناقة قد أعياها المسير، فإذا به ينتعل خفاً أسود، إنه راكب ماشٍ.

حَـالٌ مَـتَـى عَـلِـمَ ابْـنُ مَـنْـصُـورٍ بِـهَـا
جَـاءَ الـزَّمَـانُ إِلَـيَّ مِـنْـهَـا تَـائِـبَـا[١]
مَـلِـكٌ سِـنَـانُ قَـنَـاتِـهِ وَبَـنَـانُـهُ
يَـتَـبَـارَيَـانِ دَمـاً وَعُـرْفـاً سَـاكِـبـا[٢]
يَـسْـتَـصْـغِـرُ ٱلْـخَـطَـرَ ٱلْـكَـبِـيـرَ لِـوَفْـدِهِ
وَيَـظُـنُّ دِجْـلَـةَ لَـيْـسَ تَـكْـفِـي شَـارِبَـا[٣]
كَـرَمـاً فَـلَـوْ حَـدَّثْـتَـهُ عَـنْ نَـفْـسِـهِ
بِـعَـظِـيـمِ مَـا صَـنَـعَـتْ لَـظَـنَّـكَ كَـاذِبـا[٤]
سَـلْ عَـنْ شَـجَـاعَـتِـهِ وَزُرْهُ مُـسَـالِـمـاً
وَحَـذَارِ ثُـمَّ حَـذَارِ مِـنْـهُ مُـحَـارِبَـا[٥]
فَـالْـمَـوْتُ تُـعْـرَفُ بِـالـصِّـفَـاتِ طِـبَـاعُـهُ
لَـمْ تَـلْـقَ خَـلْـقـاً ذَاقَ مَـوْتـاً آيِـبَـا[٦]

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٢. يخلص الشاعر إلى ممدوحه، بعد ما جال متغزلاً في مطلع قصيدته، مبيّناً سوء حاله، آملاً بأن يكون ابن منصور باب خلاصه ممَّا فيه من سوء الحال وضيق المعاش، وفي حال إحسان ابن منصور فيكون الزمان قد تاب عن مضايقاته له.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٧. السنان: نصل الرمح. البنان، الواحدة بنانة: أطراف الأصابع. يتباريان: يتسابقان بأفعال متعارضة، يشرع الشاعر بمدح ممدوحه؛ إنه ملك، شجاع محارب، ذو مزيّتين متعارضتين، أولاهما: فتكه بأعدائه يقتل فيهم كيف يشاء، وثانيهما: كرم معتاد يسكب خيراته بغزارة.

(٣) و (٤) الخطر: الأمر الجلل. ولعظم كرمه وشدّة بأسه، فإن الممدوح لا يرى المعضلات العظيمة ذات أهمية، بل إنه يعتبرها تافهة لا تساوي شيئاً نظراً لما يتمتّع به، ولذا فإن دجلة وما يحمل من أرزاق لا يكفي شارباً ممن ينعم برفده وكرمه. ولو حدّثه أحد هؤلاء عمَّا فعله معه من جميل الأفعال لظنّه كاذباً لكثرة تلك الأفعال ولعدم قدرة الكثيرين على فعل تلك الأفعال.

(٥) و (٦) يخاطب الشاعر من سوّلت له نفسه معاداة ممدوحه، محذراً إيّاه بأن يعرف ما وصلت إليه شجاعته؛ فعليه أن يزوره مسالماً له، وعليه ألّا يُعاين بطولته في ساحة الوغى، فسيرى الموت متمثلاً بتمثيله بالأبطال الذين صرعوا على يديه، ولو عاد أحدهم إلى الحياة وأخبر عمَّا فعله به لشابت من ذلك رؤوس الأطفال.

إنْ تَـلْـقَـهُ لَا تَـلْـقَ إلَّا قَـسْـطَـلاً
أَوْ جَـحْـفَـلاً أَوْ طَـاعِـنـاً أَوْ ضَـارِبَـا[١]
أَوْ هَـارِبـاً أَوْ طَـالِـبـاً أَوْ رَاغِـبـاً
أَوْ رَاهِـبـاً أَوْ هَـالِـكـاً أَوْ نَـادِبَـا[٢]
وَإِذَا نَـظَـرْتَ إِلَـى الْـجِـبَـالِ رَأَيْـتَـهَـا
فَـوْقَ الـسُّـهُـولِ عَـوَاسِـلاً وَقَـوَاضِـبَـا[٣]
وَإِذَا نَـظَـرْتَ إِلَـى الـسُّـهُـولِ رَأَيْـتَـهَـا
تَـحْـتَ ٱلْـجِـبَـالِ فَـوَارِسـاً وَجَـنَـائِـبَـا[٤]
وَعَـجَـاجَـةً تَـرَكَ ٱلْـحَـدِيـدُ سَـوَادَهَـا
زِنْـجـاً تَـبَـسَّـمَ أَوْ قَـذَالاً شَـائِـبَـا[٥]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٧. القسطل: الغبار. الجحفل: الجيش اللجب. إنها حال من لا يستكين، فتارة يتقدّم الممدوح جيشاً لجباً يُروي الأبطال برمحه، ويقطع رؤوس أعدائه بسيفه، في وسط المعركة حيث يتصاعد الغبار عند اشتداد الوطيس.

(٢) أما حال الآخرين من البشر فالأمر يختلف؛ منهم الفارّ من غضبه، أو سيفه، ومنهم الراغب برفده، الطامع بكرمه، ومنهم الراغب بمصالحته، أو التقرّب إليه مذعناً لإرادته، آملاً بمصالحته، أو الخائف من سطوته، أو منهم من هلك لمعاداته إيّاه بسيفه، ومنهم من يندب موتاه الذين سقطوا صرعى في حربه.

(٣) العواسل، الواحد عاسل: الرماح. القواضب، الواحد قاضب: السيوف البتّارة. ومن عادة الممدوح أنه يجوب الأرجاء، فتارة يصعد بجيشه الجبال فتبرق آلات أسلحة الجيش مشعة وقد انعكست عليها أشعة الشمس، فتبدو الرماح والسيوف.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٧. الجنائب، الواحدة جنيبة: الخيول التي تقاد إلى جنب الفارس. وتارة يسدّ جيش الممدوح السهول، إنهم فرسان يمتطون جيادهم، فضلاً عن جياد أخرى رديفة.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٧. العجاجة: الغبار. القذال: مؤخر الرأس من الإنسان أو الجواد، وإتماماً فصورة الجيش في ساحة الوغى تتشكّل الألوان بصور تخدع النظر؛ الغبار يتصاعد في السماء ويختلط بالعتاد الحربي الأسود الحديدي، فيبدو المشهد من بعيد كأن زنجياً تطاول برأسه والبسمة تعلو ثغره، أو يبدو قفاه وقد غزا الشيب رأسه.

فَكَأَنَّمَا كُسِيَ النَّهَارُ بِهَا دُجَى
لَيْلٍ وَأَطْلَعَتِ الرِّمَاحُ كَوَاكِبَا[١]
قَدْ عَسْكَرَتْ مَعَهَا الرَّزَايَا عَسْكَراً
وَتَكَتَّبَتْ فِيهَا الرِّجَالُ كَتَائِبَا[٢]
أُسُدٌ فَرَائِسُهَا ٱلْأُسُودُ يَقُودُهَا
أَسَدٌ تَصِيرُ لَهُ ٱلْأُسُودُ ثَعَالِبَا[٣]
فِي رُتبَةٍ حَجَبَ ٱلْوَرَى عَنْ نَيْلِهَا
وَعَلَا فَسَمَّوهُ عَلِيَّ ٱلْحَاجِبَا[٤]
وَدَعَوْهُ مِنْ فَرْطِ السَّخَاءِ مُبَذِّراً
وَدَعَوْهُ مِنْ غَصْبِ النُّفُوسِ الْغَاصِبَا[٥]
هٰذَا الَّذِي أَفْنَى النُّضَارَ مَوَاهِباً
وَعِدَاهُ قَتْلاً وَالزَّمَانَ تَجَارِبَا[٦]

---

(١) وإتماماً للصورة: إنه نهار ولكن عتمة الليل داهمته وفي الحالة هذه تتلألأ الرماح مضيئة تلمع في أفق المشهد وكأنها كواكب في جنبات السماء.

(٢) عسكرت: اجتمعت، الرزايا، الواحدة رزيّة: المصائب والويلات. الكتائب، الواحدة كتيبة: الفرقة من الجند. وإتماماً للصورة، شغلت ساحة المعركة الجند، وقد انتظموا كتائب تحمل على الأعداء فتنزل بهم شتّى أنواع الموت والمصائب.

(٣) إنهم أسد شجاعة وفتكاً، إنهم يفتكون بأسود تحوّلوا إلى ثعالب جبناء لرعبهم.

(٤) و (٥) حجب: ستر. الورى: الناس. إنها مرتبة عالية بلغها عليّ الحاجب بجيشه وعزيمته. وكانت تسمية الحاجب على مستوى دلالتها، فقد أخمد صوت كلّ عدوه. ولعظم كرمه أسماه الحاسدون مبذراً لعدم قدرتهم على إدراك شأوه في السخاء، وهم لشدّة بطشه بهم اتهموه بأنه يغصب النفوس حياتهم.

(٦) النضار: الذهب. ومن عظم الممدوح أنه يمارس عملية الإفناء؛ فالذهب يفنيه بتوزيعه بين محبيه ورعيته، والأعداء أفناهم قتلاً وسفكاً لدمائهم، والزمان أفاد منه تجربة ومعرفة وكأنه يضطلع على غيبه، وهو بذلك موفق، مما يجعله قادراً على قتل ما في الزمان من مفاجآت سيّئة الطالع.

وَمُـخَـيِّـبُ الْـعُـذَّالِ مِـمَّـا أَمَّـلُـوا
مِـنْـهُ وَلَـيْـسَ يَـرُدُّ كَـفًّـا خَـائِـبَـا[١]
هٰـذَا الَّـذِي أَبْـصَـرْتُ مِـنْـهُ حَـاضِـراً
مِـثْـلَ الَّـذِي أَبْـصَـرْتُ مِـنْـهُ غَـائِـبَـا[٢]
كَـالْـبَـدْرِ مِـنْ حَـيْـثُ الْـتَـفَـتَّ رَأَيْـتَـهُ
يُـهْـدِي إِلـى عَـيْـنَـيْـكَ نُـوراً ثَـاقِـبَـا[٣]
كَـالْـبَـحْـرِ يَـقْـذِفُ لِـلْـقَـرِيـبِ جَـوَاهِـراً
جُـوداً وَيَـبْـعَـثُ لِـلْـبَـعِـيـدِ سَـحَـائِـبَـا[٤]
كَـالـشَّـمْـسِ فِـي كَـبِـدِ الـسَّـمَـاءِ وَضَـوْؤُهَـا
يَـغْـشَـى الْـبِـلَادَ مَـشَـارِقـاً وَمَـغَـارِبَـا[٥]
أَمُـهَـجِّـنَ الْـكُـرَمَـاءِ وَالـمُـزْرِي بِـهِـمْ
وَتَـرُوكَ كُـلِّ كَـرِيـمِ قَـوْمٍ عَـاتِـبَـا[٦]
شَـادُوا مَـنَـاقِـبَـهُـمْ وَشِـدْتَ مَـنَـاقِـبـاً
وُجِـدَتْ مَـنَـاقِـبُـهُـمْ بِـهِـنَّ مَـثَـالِـبَـا[٧]

---

(١) و (٢) العذال، الواحد عذول: اللائمين. إن الممدوح لا يهتم لأقوال اللائمين بما يفعل، فيعودون وقد كسفتهم الخيبة بسوادها، وآمالهم ذهبت أدراج الرياح. والممدوح في الحقيقة لا يرد طالب الخير بالخيبة، بل إنه لكرمه ينفله العطاء الجزيل، وليس غريباً أن يرى الشاعر صدق القول والفعل من ممدوحه.

(٣) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ١٥٨. الثاقب: المضيء. إن الممدوح بدر يُضيء سماء المعوزين في ظلمة الحياة بكرمه ولا يستثني منهم أحداً، كما يرى المرء ضوء القمر المشعّ حيثما كان في الكون.

(٤) ورد البيت في: الوساطة من المتنبي وخصومه: ١٢٨. وإن الممدوح بحر شاسع واسع تشمل أمواج الكرم لديه للقريبين منه لؤلؤاً وجواهر، وحتى من بعد فإن سُحُب الخير تسوقها رياحه نديّة عطرة بكرمه.

(٥) وإن الممدوح بمثابة شمس تشمل الكون كلّه بفيض ضوئها وشعاعها فالمشارق والمغارب لا تمايز بينهما.

(٦) و (٧) أمهجن: أي يا عائب. المزري: المحقر. يخاطب الشاعر ممدوحه منوّهاً =

لَـبَّـيْـكَ غَـيْـظَ ٱلْـحَـاسِـدِيـنَ الـرَّاتِـبـا
إِنَّـا لَـنَـخْـبُـرُ مِـنْ يَـدَيْـكَ عَـجَـائِـبَـا[١]
تَـدْبِـيـرَ ذِي حُـنَـكٍ يُـفَـكِّـرُ فِـي غَـدٍ
وَهُـجُـومَ غِـرٍّ لَا يَـخَـافُ عَـوَاقِـبَـا[٢]
وَعَـطَـاءَ مَـالٍ لَـوْ عَـدَاهُ طَـالِـبٌ
أَنْـفَـقْـتَـهُ فِـي أَنْ تُـلَاقِـيَ طَـالِـبَـا[٣]
خُـذْ مِـنْ ثَـنَـايَ عَـلَـيْـكَ مَـا أَسْـطِـيـعُـهُ
لَا تُـلْـزِمَـنِّـي فِـي الـثَّـنَـاءِ الْـوَاجِـبَـا[٤]
فَـلَـقَـدْ دَهِـشْـتُ لِـمَـا فَـعَـلْـتَ وَدُونَـهُ
مَـا يُـدْهِـشُ الـمَـلَـكَ ٱلْـحَـفِـيـظَ الْـكَـاتِـبَـا[٥]

= بعظمة كرمه، فقد تخطّى الكرماء جميعاً بمباراة الكرم وأزرى بهم، ولم يترك أحداً منهم راضياً، ممّا حملهم على عدم الرضى بما يفعل والغيرة والحنق تملأ قلوبهم. لقد عملوا على بناء صرح كرمهم، فإذا به لم يكتمل؛ بل إنه تكتنفه مثالب النقص. بينما كانت إشادتك صرح الكرم متقنة البنيان عالية الأركان.

(١) غيظ الحاسدين: حنقهم وغضبهم. الراتب: المقيم. نخبر: نعلم يقيناً. يمتثل الشاعر لطلب ممدوحه المقيم على عادة راسخة في حياته، والتي حملت الحاسدين ليختزنوا في قلوبهم حقداً دفيناً وكرهاً لمن قدّم على حسن نحيزته وأصالة أرومته المرة تلو المرة؛ وفي كلّ مرّة يظهر للرائي عجائب جديدة تنمّ عن موهبة الكرم فيه.

(٢) يروى «تدبير وهجوم» بدلاً من «تدبير ذي حنك». الحنك، الواحدة حنكة: نضج التجربة. الغرّ: من لا تجربة لديه. ومن مزايا الممدوح أنه مطلع على الأمور وقد عجنته التجربة، ويحسن الحكم على المستقبل وهو في الوقت نفسه مغامر لا يحسب للعواقب حساباً؛ وهذا سرّ نجاحه في الحياة.

(٣) عداه: تخطّاه وتجاوزه. ولعظم كرم الممدوح، فإن لم يأته طالب إحسان، فإنه ينفق ماله في البحث عمّن يحتاج إليه.

(٤) يقدّم الشاعر عن تقصيره في مدح ممدوحه عذره؛ فالممدوح يستحقّ الكثير من الإشادة بما لديه من صفات حميدة، والواجب الزيادة. والحقيقة أنه زاد وأكثر.

(٥) دهش: تحيّر. الملك الحفيظ: هو كاتب أعمال البشر من الملائكة. عبّر الشاعر عن شدّة حيرته بما شاهد ولقي من ممدوحه من كرم وحسن ضيافة، حتى إن الملك المطّلع على أعمال البشر يُدهش بدوره لعلمه بأن ما فعله هذا الممدوح لم يفعله سواه.